الفصل الأول

ليوسعنّهم خيرًا

كانـت مكة تُـودع ضيوفها الذين وفَـدوا عليها من شـتَّى بقاع الجزيرة ليشـهدوا مهرجان «عكاظ» حيث تزهو القبائل بشعرائها المتفوقيـن، وحيث تزدان حَلْبة المصارعة بفتيان قريش الأشـداء يعرضون ألعابهم فى فن عظيم.

كانت مكة تودع أولئك الأضياف الذين شدُّوا الرحال راجعين إلى بلادهم، ونُجوعهم - عدا نفر قليل منهم اسـتهواهم البلد الحرام، فتهيبوا الظَّعْن، وآثروا المكث.

من هؤلاء النفر، ذلك الشـيخ الذى يقطع الطريـق وَهْنًا، مُيممًا وجهه شَـطْر دار الندوة ليقضى بها سـاعة الأصيل مـع رفاقه فى الشيخوخة والذكريات..!

وإنه لمَاضٍ فى سـبيله، إذ لقيه فى الطريق أعرابى قريب العهد بمكة يعمل راعيًا لدى واحد من سادات قريش..

ولا يكاد الفتى يبصر الشيخ أمامه حتى تتحدر الكلمات من بين شفتيه فى حَمَيَةٍ وعجلَة.

– هل علمت النبأ العظيم يا أخا العرب.

– أى نبأ يا بنى...؟

– ذلك الرجل الأعْسَر اليَسَر..

ويتساءل الشيخ قائلا:

– الذى كان يصارع فى سوق عكاظ..؟

– أجل... هو..

– ما باله يا فتى..؟

– لقد أسلم، واتبع محمدًا..

ويُفيق الشيخ من الدهشة، ويقول وقد كست وجهَه حكمةُ السنين:

– «أمَا والحق، لَيُوسِعَنَّهم خيرًا.. أو لَيوسِعَنَّهم شرًّا»..!!

* * *

أما الأعْسَر اليَسَر الذى كان يُصارع فى سوق عكاظ، فهو عمر.. وأما نبوءة العربى، فقد جاءت كفَلَق الصبح، وضوء النهار.

ومن ذلك اليوم، لم يعد الأعسر اليَسَر.. «عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى»، من بنى عَدِىّ.. لم يعد ذلك الذى يُصارع الأشداء فى سوق عكاظ، بل صار «الفاروق عمر»، الذى سيصارع الباطل فى جزيرة العرب، أوَّلَ النهار.. وفى كل الدنيا، آخِرَه..

سيكون الرجل الذى يملأ أرض الناس عدلا، وأمْنًا، ورحمة وهُدى.

سيكون «المعلِّم» الذى يَبلُغ الرشد الإنسانى على يديه رُشدَه. و«الأستاذ» الذى تجلس الدنيا عند قدميه..!

أجل.. سيكون الإنسان الذى يرفع الله به من قَدْر البشَر، وقَدر الحياة.

* * *

«لَيوسعنهم خيرًا، أو لَيُوسعنهم شرًّا»..!!

كيف أدرك الشيخ العربى، مصاير الأمور على هذا النحو السريع القَطِن..؟

الحق أن الذى قُدر له أن يرى «عمر» فى شبابه ولو رؤية عابرة، قادر على أن يردد نفس النبوءة، ويستشرف الغد الذى استشرفه الشيخ فى غير عَناء.

«فعمر»، ذلك الرجل القوى، المجدول اللحم، المشرب بالحمرة، الغليظ القدمين والكفَّين، العريض المنكبين، الفارهُ الشامخ العملاق، الذى لم يَسِر قط مع قوم إلا كان أعلاهم رأسًا من فَرط طوله.

الرجل الذى كان كما نَعتُوه: «إذا تكلم أسمع وإذا مَشَى أسرع، وإذا ضرب أوجع».

«عمر» الذى لم يَخف قط فى حياته أحدًا، ولم يختلج جنانه الصامد أمام رهبة أو فزع.

«عمـــر» الـــذى ورث من طبـــاع أبيه، صرامة لا تعـــرف الوهْن، وحَسْمًا لا يُؤرجحه التردد، وتَصميمًا لا يقبل أنصاف الحلول.

«عمر» هذا.. من اليسير جدًّا استكشاف حقيقته، وقراءة دخيلته والتنبـــؤ بمصاير الأمور بين يديه، فإمـــا أقصى اليمين، وإما أقصى اليسار.

إنه أبعد الناس عن ازدواج الشخصية، وتعددها..

ومركز الثقل فيه، لا تتناوَبه أشتاتُ نفس مُوزَّعة، ولا تميل به أهواء متنافرة، إنما تحتشد به شخصية متَّسقة حافلة.

فحيـــث يوجد«عمر» توجـــد كل شـــخصيته، وكل إرادته، وكل منهجه.

لا ينقســـم على ذاته أبـــدًا.. ولا يضع إحدى قدميه هنا - وثانية القدمين هناك.

إنه رجلٌ «جَمِيعٌ» تتحرك كل قُدراته فى دقة واتّســـاق.. يفوقان دقة الجيش المدرَّب واتّســـاقه. وليس لذرة واحدة فى كِيانه فرصة للتخلف.. أو للتلكُّؤ، أو للنَّشاز..!

إنها طبيعة فذَّة قلَّما تتكرر، وقلما يكون لها فى الأعداد الهائلة من البشر نظير.

ولقـــد كان الرســـول ﷺ يـــدرك عظمـــة الطبيعة البشـــرية التى رُزقها «عمـــر».. وكان يعرف ما تنطوى عليـــه من أصالة واقتدار.. كما كان يعرف ما يتمتع به «عمرو بن هشام» من جاه ونفوذ.

مـن أجل هذا دعا ربه الكبير أن ينصر الإسـلام بأحب الرجلين إليه - «عمر بن الخطاب»، أو «عمرو بن هشام».

ولقـد ربح الإسـلام أحـبَّ الرجليـن إلـى الله، وكان «عمر بن الخطاب» صاحب الفطرة القوية السـويَّة الجيَّاشة... ألقى ثقله كله فى كِفَّة التوحيد، على حين ألقى الآخر ثقله فى كِفَّة الشرك. ولكن مصيـر الميزان تقرر فى نفس اللحظة التـى أصبح فيها «عمر» قوة فى إحدى كفتيه، واسـتبانَ غَدُ الإسـلام كضوء الفجر منذ قال «ابن الخطاب»: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»..!

يقـول عبد الله بن مسـعود: «ما زلنا أعزة منذ أسـلم عمر، كان إسـلامه فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكانت إمارته رحمة، ولقد رأيتُنا وما نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر»..!!

* * *

هذا العنفوان الوثيق فى شـخصية «عمـر» كان يبدو كما لو كان تطرفًا، وتزمُّتًا، وغِلْظة..

فى الجاهلية، كانت مُحادَّته للإسـلام، تكاد وحدها تعدل أذى قريش.. وكان تشبثه بموقفه يَدحَض أى أمل فى عُدوله عنه، حتى لقد صوَّر أحد المسـلمين يومئذ يأسـه من إسلام «عمر» بقوله: «إنه لن يسلم حتى يُسلم حِمار الخطاب»..!!

وفى الإسـلام، صـارت مُحادَّتُـه للوثنية تكاد تعـدل وحدها مقاومة الإسـلام بأسـره، وصارت صرامته العادلة العاقلة مضرب الأمثـال، حتـى لقـد كان الوحيد بيـن الصحابة الـذى يُكثر من

مناقشة رسول الله ﷺ، والذى يقترح أحيانًا على الرسول، فيُمضى رسول الله ﷺ ما اقترح، ويَسن ما ارتأى. وكان شديدَ الوطأة على خصوم الإسلام بصورة تفرَّد بها عمن سواه.

بَيْد أن ذلك لم يكن من «عمر» تطرفا، ولا تزمتًا، ولا قسوة. إنما كان تفوُّقًا..

ذلك أن الطبيعة التى كانت تحتشد مَواهبها وقُدْراتها على هذا النَّسق الفذِّ الذى توفَّر «لعمر»، لا يكون لصاحبها الخيار إلا فى مستوى هذا التفوق المهيمن العميم.

وهكذا كان «عمر»..

رجل مُزوَّد بطبيعة مشحوذة قوية ممتلئة.. طبيعة مستقيمة القصد، شديدة الأسْر، سَواء فى ضلالها وهُداها..

وهى إذا اتخذت موقفًا، تبلغ فيه المدَى. لا استجابة لنزعة الغُلّو، بل تحقيقًا لإمكاناتها الحافلة، وتعبيرًا تلقائيًا عن تفوُّقها وامتلائها..

إن ثَمَّةَ فارقًا كبيرًا بين التفوق والتطرف..

الأول، يشبه النمو الطبيعى.

والثانى، يشبه مرض نمو العظام.

الأول تثمره خلايا حيّة عاملة، وطبيعة سوية نامية، و الثانى عَرض من أعراض العلة والسقم..

والتفوق، قوة عادلة تتضمن الحكمة، ولا تستعلى على الخير، أو تتوارى من الحق..

وهكـذا كان الذى مـع «عمر» التفـوق، لا التطـرف.. والقوة، لا القسوة..

وإن الظروف التى أزْجَتْ إسـلامه وأحاطت به لَتكشـف جوهر طبيعته، وتوضح هذا أوضح بيان..

* * *

ذات يوم لَاهِب، خرج من داره حاملا إصراره الحَرُور، وسـيفه الجسُور، مَوَليًا وجهه شـطر «دار الأرقم» حيث كان الرسول ونفر من أصحابه المؤمنين يذكرون الله هناك، ويعبدونه.

وفى الطريق يلقاه «نُعيم بن عبد الله» فيرى ملامحه تتفجر بأسًـا ونقمة، فيقترب منه فى وَجَل ويسأله:

- إلى أين يا «عمر»..؟

فيجيبه: «إلى هذا الصابئ الذى فرَّق أمر قريش وسفَّه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها فأقتله»..

ويَذهل «نعيم» عن إحساسـه بالموقف، وبالخطر الذى ينجم عن معارضته لعمر، فيقول له:

- «لبئس السعى سعيك، وبئس الممشَى ممَشاك»..!

ويخشى «عمر» أن يكون «نعيم» قد أسلم، فيقول له:

- «لعلك صبَأت... إن تكن فعلتَ فواللّاتِ والعُزَّى لأَبد أَنَّ بك».

و«نعيـم» يعرف تمامًـا أن «ابن الخطاب» يعنى مـا يقول، فيُنهى الحِوَار بعبارة تلوى زمام «عمر»، إذ لا يكاد يحتمل وَقْعَها الشديد:

– «ألا فاعلـم يـا عمر أن أختك وزوجها – سـعيد بن زيد – قد أسلما، وتركا دينك الذى أنت عليه»..

– أخته...؟؟ فاطمة بنت الخطاب..؟؟

مالَه ولدار الأرقم إذن، وقد اقتحم الخطر داره هو وعَرِينه..؟؟

وهكذا، أغذَّ السير إلى دار خَتَنِه «سعيد»..

* * *

فـى جوْف الدار كان «سـعيد بن زيد»، وزوجتـه «فاطمة بنت الخطـاب» و«خَبّاب بـن الأرَتّ»، ومل ء أيديهـم صحيفة فيها من وحى الله آيات يتلونها ويتدارسونها.

وقَرع الباب قرعًا رهيبًا..

وقيل: مَن؟. قال: عمر..

أمّا خباب، فسـارع إلى مخبأ قَصِىٍّ فى الدار، سـائلا الله حفظه وغَوثه..!!

وأما أخت «عمر» وزوجها، فقد اسـتقبلاه لَدَى الباب يغشـاهما ذهول المفاجـأة، ولم تنس بنت الخطاب فى هذه الغمرة الداهمة، الصحيفة الكريمة التى بها آى الله فخبأتها تحت ثيابها.

قـال «عمر» والهـول ينقذف من عينيه: ما هـذه الهينَمة التى سمعتُ عندكم؟

أجابا: لا شىء، إنها نجْوَى وأحاديث..

قال لهما: سمعت أنكما صَبَأتُمَا...

قال سعيد: «أرأيت يا عمر إن كان الحق فى غير دينك»؟؟

ولـم يمهله «عمر» حتـى يتم حديثه، فوثب عليـه فى عنفوان لَجِب، وأخذ برأسـه يجـرّه ويلويه، ثم ألقـاه أرضًا، وجلس فوق صـدره.. وحين تقدمت أخته لتدافع عـن بَعْلها أصابتها منه لطمة أدْمت وجهها فصاحت به وكأنها بُوقٌ سماوى يُدَوِّى ويصلصل:

– «يـا عدو الله، أتضربنى على إيمانى بـالله الأحد؟ ألا ما كنت فاعلاً فافعل؛ فإنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله».. !

والآن، انتبهـوا جيـدًا، فإن اللحظة الحاسـمة تـدق، مُؤذنة بالتحول وكاشِـفة عن الجوهر النقى القوى الذى صُنعت منه فِطرة هذا الرجل الكبير. فبينما هو فى بأسه الشديد ذاك، يجابهه الحق عالى الصيحة، فيلين له «عمر» ويتخشَّع..

ذلك أن الكلمات المندلعة من إصرار أخته كانت تحمل كل رنين الصدق.

هذا الرنين الذى يعرفه ويميزه من له فطرة كفطرة «عمر»، تمامًا مثلما يدرك الفارس الأصيل المجرب، أصالَة الخيل من صهيلها ! !

ولو كانـت قوة «عمر» قوة عناد وقسـاوة، لتمادت فى ضَراوتها ولبلغت من الموقف ما تريد.

أمّا وهى قوة تفوّق وبطولة، فقد استجابت من فورها لهذا الجلال المتبدى أمامها، لهذا الـرأس العزيز المرتفع، رأس «فاطمة بنت الخطاب» المؤمنة بالله وبرسـوله.. ولهذه الكلمات المتوهجة بنور الحق الصادحة برنين الصدق.

وفجأة ينهض من فوق صدر «سعيد»، ويبسط يده الضارعة إلى أخته، سائلا إياها أن تعطيه الصحيفة التى رآها تبرز من تحت ثيابها:

- هات هذه الصحيفة، لأنظر ما فيها.

وتجيبه أخته: «كلا، إنه لا يمسُّه إلا المطهرَّون، اذهب فاغتسل وتطهر».

ويمضى «عمر» كالأنفاس الوديعة الهادئة، هذا الذى كان من لحظات إعصارًا يُدمدم.. ويعود وَلحيته تقطر ماء، وتعطيه أخته الصحيفة، ويقرأ:

«بسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ [سورة طه: الآيات من ١ - ٨].

ثم يتابع التلاوة فى خشوع وتبتُّل:

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾ [سورة طه: الآيات من ١٤ - ١٦].

ويعانق عمر الصحيفة ثم يقبِّلها. وينهض واقفًا ويقول:

«لا ينبغى لمن هذه آياته، أن يكون له شريك يُعبد معه، دلُّونى على محمد»!

وهنا يبــزغ «خبَّاب بن الأرت» من مخبئه، ويهرول صوب عمر صائحًا: «أبشر يا عمر، فو الله لقد استجيب دعاء الرسول لك».

ويتخذ عمر سبيله إلى الصفا حيث دار الأرقم، وهناك بين يدى رسول الله ﷺ يدخل فى الدين الحق، ويكبر المسلمون تكبيرة تهتز لها مكة جميعًا..!

* * *

فى مثل لمح البصر، تمَّ هذا التحول الهائل العظيم، وانتقل إلى أقصى رحاب الهدى، رجل كان يقف فى أقصى مجاهل الوثنية.

والطبيعة القوية التى كانت تحتشــد لتحــرس آلهة قريش من زحف الدين الجديد، وثَبت الآن وثبة فى الضياء إلى الجانب الآخر من أرض المعركة بكل بأسها وبكل قوتها، إبَّان لحظة حاسمة أجاد توقيتها وأحسن إعدادها قدَرٌ حكيم عليم!

لقد كان «عمر» يذود عن مقدسات الجاهلية، يوم كان يؤمن أنها حق..

وهو الآن وقد أسلم وجهه لله، سيضع كل حياته وقوته فى خدمة دين، آمن أنه الحق..

ذلك أنه رجل يسير وَفْق إيمانه واقتناعه، لا وَفق هواه..

بيد أن إيمانه الأول وإيمانه الأخير لا يستويان.

فإيمانه القديم، إيمان لا برهان له - برهانه التقليد الذى يحجب عن العقل ضوء الحقيقة، ويحرم القلب من بهجة الصدق.

أما إيمانه الجديد فمعه برهان. أىّ برهان..!!

* إن الله الذى يعبده اليوم ليس من حجر ولا من مَدَر. إنما هو نور السماوات والأرض، على كل شىء قدير، وبكل شىء عليم.
* والداعى إلى الدين الجديد، ليس واحدًا من طراز أولئك الكهنة الذين يرتزقون بالأصنام، ويستمدون سلطانهم من جهالة الناس وترويج الأساطير.. إنما هو «محمد» الذى لم يكن صدقه ولم تكن أمانته موضع ريبة أو شبهة طوال الأربعين عامًا التى قضاها بين قومه عابدًا، قانتًا، طاهرًا، باهرًا.
* وزملاؤه الجدد، إخوانه فى هذا الدين، ليسوا على شاكلة الآخرين الذين لا همَّ لهم سوى اللهو واللعب، والميسر والضياع.

إنما هم رعيلٌ عظيم وَضع وِزره، وَنَضاَ عن نفسه غرور الحياة الدنيا، وتهيأ لرسالة كبرى وجهاد عظيم.

أجل.. إن الناس الذين هنا. مع محمد رسول الله، قد وجدوا غرَضًا عظيما يَحيَوْن من أجله... أما الآخرون الذين خَلَّفهم «عمر» وراء ظهره فيتكفأون على موائد الميسر يزدادون بها سفاهة، أو يتحلَّقون حول الأزلام يستفتونها فى حظوظهم العاثرة... أو يطوفون حول أصنام من حجارة نحتوها بأيديهم ثم خروا لها سُجَّدًا.

هنا إيمان حق، معه من الله برهان.

هنا إيمان يرفع الرءوس عالية. ويصل الإنسان بالله دون ما حاجة إلى وسيط أو شفيع.

وطبيعة كطبيعة «عمر»، ترفض التبعية، وتستعلى على الإذعان والرضوخ، ليس لها مجال حيوى ولا مُناخ طبيعى إلا فى دين كهذا الدين حيث يقف الناس سواسية كأسنان المشط، وحيث أكرمُهم عند الله أتقاهم، وحيثُ يَعبقُ الطهر ويتضوَّع الحق، وحيث يتلو «محمد» آيات ربه فتتبدَّى من خلالها مَعالم الحياة الوافدة، والمصاير الواعدة وتسمع الألباب فيها صلصلة الحقيقة، وتجد الأفئدة معها بَرْد اليقين!!..

* * *

إن القوة نفسها والأصالة نفسها، تعملان فى الطبيعة الفريدة «لعمر» بعد أن صار الإسلام له دينًا. ولكن هذه الطبيعة بعد الإسلام تتفوق تفوقًا بعيدًا عنها قبل الإسلام؛ ذلك أنها وَجدت نُهاها، وهُداها، ولم يعد مجَالها تلك الأصنام الهامدة حول الكعبة، أو تلك الشئون الضحلة لحياة مكة، بل تعلقت هذه الطبيعة بالسماء وبالأرض جميعًا، وصار موضوع نضالها دينًا يدرك بفطنته المشرقة أنه لن يقتصر على أرض الرمال، والإبل، والشَّعر، بل سيَزْحف مشرِّقًا ومغرِّبًا حتى يغمر العالمين!!

مــن أجل هذا يبدأ القلــق الذكى فى الطبيعــة العمرية من أُولىَ لحظات إسلامه. فيقول لرسول الله ﷺ :

– «ألَسْنَا على الحق فى مماتنا وَمَحيانا؟؟..».

ويجيبه الرســول: «بلى يا عمر. والذى نفســى بيده إنكم لعلىَ الحق إن متم وإن حييتم».

يقــول «عمــر»: «ففيــم الاختفــاء إذن..؟ والذى بعثــك بالحق لَتخرجَنّ، ولنخرجن معك».

ويخرج الرســول والمســلمون معه فى صَفَّين. «عمر» فى صف، و«حمزة» فى الصف الآخر.

وبهذه الخطوات التى اســتحثَّها «ابن الخطــاب»، بدأ الزحف الطويل المبارك الذى استمر ألفًا وأربعمائة عام. ولا يزال..!!

إن الرجل الذى جاء منتضيًا ســيفه ليقتل رســول الله، قد تحوَّل فى لحظات سعيدة إلى مؤمن بالله وبرسوله. فماذا عساه يفعل الآن؟

ما الامتداد الذى ستواصل طبيعته المسير فيه؟

وما ردُّ الفعل الذى سيكيف وجهتها الجديدة؟

إن خواطره الســريعة لَتُهــلُّ.. وكأنها تتحــرك وَفق «خارطة» مفصلة قد وُضعت سَلفًا..

ولســوف يُتابع عمــر «المســلم» أداء المهمة التــى بدأها عمر «الوثنى» ولكن فى مستوى أعلى، وغاية أرفع..

أجل، لقد خرج من داره مُنتضيًا سيفه قاصدًا دار الأرقم ليصرع الباطل.

حسن. فليمض لغايته، وْليُواصل مهمته.. غير أنه الآن لن يصرع الحق الذى كان يتوهمه باطلا.. بل سيصرع الباطل الذى طالما توهمه حقًّا..!

سيصرع الباطل الذى هو باطل، والذى انخدع «عمر» عن زَيْفِه وحقيقته فترة من الزمان.

وإنه الآن، وقد كُشِف عنه غطاؤه، لَيُدوى بصوته الجسور:

– «والله، لن أترك مكانًا جلست فيه بالكفر إلا جلستُ فيه بالإيمان»..!

وإن مع طبيعته من الذكاء والمقدرة ما يجعلها مُهيأة للعمل دومًا، واضعة عينيها على الهدف أبدًا.

وهو لهذا وبهذا، رجل لا يعرف أنصاف الحلول، ولا ينام على الضيم لحظة من نهار أو مساء.. والضيم عنده أشمل وأعمّ من أن يكون رَهَقًا ينزل به، أو خسفًا يُسامُه.. والضيم أيضًا أن يعجز عن تحقيق ذاته، وإنجاز مشيئته، وبلوغ الأمر الذى يريد.

وهكذا رأى من الضيم أن يترك معالم جاهليته تعيش ولو خابية كابية، ومن ثمَّ فإن آثار قدميه فى طرقات مكة حيث كان يَذرعُها منددًا بالإسلام، ومتعقبًا ذويه، لابد أن تذوب وتتلاشى فى خطواته

الجديدة الثابتة التى سيذرع بها الطرقات نفسها مُسبحًا بحمد الله ومقدِّسًا له..

وكل مكان رفع فيه عقيرته لاهجًا بأصنام قريش. لابد أن يجلجل فيه بـ «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».. ! !

أجل، سيتعقَّب «عمر» كل حركاته، وكل كلماته، وكل خلجاته التى ظلت تحمل سخريته بدين الله مدى ستة أعوام، منذ بدء الرسالة حتى يوم إسلامه..

سيتعقبها فى كل مظانها ومَواطنها، وسيضع مكان كل سيئة حسنَة.

سيقتلع جميع الأشواك التى ملأ بها طريق «محمد» وصحبه، وسيغرس مكانها أزاهير.. سيزرعها حبًّا، وتفانيًا، وسيشترى أَمْنَ هذا الدين بحياته، جميع حياته.. ! !

إن طبيعته تنادى الزمان والمكان، بل تُلغيهما إلغاء لتظل لها سيادتها وتفوقها. فإذا أخطأ عمر فى زمان ما، فى مكان ما.. ثم أراد أن يصحح خطأه، فليس يكفى فطرتَه الفذة النادرة أن تتجنب الخطأ.. بل هى تريد اقتلاعه تمامًا، واقتلاع الزمان والمكان اللذين كانا للخطأ وعاء..

ومن ثَمَّ فهى تأبى إلا أن تعود للمكان نفسه، ولو استطاعت لاستردَّت الزمان نفسه لتقول إن ذلك الخطأ لم يكن. ولا كان المكان الذى شهده، ولا الزمان الذى احتواه! ! !

مـن أجل هذا مضى إلى كل مكان جلس فيه بالكفر، فجلس فيه بالإيمان - أكان ذلك كافيًا..؟

لا، فهناك عمل كثير وقدير، سـيواصَله عمر حتى يحسَّ أنه قد طهَّر نفسه من كل آثام جاهليته..

فهو يذكر أن تمسـكه السالف بدين قريش، كان من أهم أسباب الاضطهاد الذى لقيه الرسـول وصحبه.. واليوم وقد آمن، فلابد أن يكون إسلامه عاملا حاسمًا فى شدّ زِناد المقاومة الإسلامية.

أجل بالأمس كانت وثنيته من الأسباب التى حملت المسلمين وهم قلـة، على الفرار بدينهم إلى «دار الأرقم» حيث يعبدون الله خُفْية..

واليوم، لابد أن يكون إسـلامه عاملا حاسمًا فى الجهر بالدعوة ونبذ التخفىّ والمداراة.

وإنه ليذهب إلى رسول الله فيقول:

- «بأبى أنت وأمى يا رسـول الله، ما يحبسك، فو الله ما تركت مجلسًا كنت أجلس فيه بالكفر، إلا أظهرت فيه الإيمان غير هائب ولا خائف - ألاَ إننا لن نعبد الله سرًّا بعد اليوم»..

ويستجيب الرسول لرأيه، وتخرج الدعوة من مَكْمنها إلى أرض الله الواسعة.

أفهل يكتفى عمر بذلك..

كلا، فلا يزال ثَمّة خطوة تبهر الألباب حقًّا.

لقد تذكر «عمر» أنه بالأمس كان كفار قريش يأخذهم الزهو لأن «عمر» يَضرب بيده أصحاب «محمد».. فليمنح المسلمين اليوم زَهوًا مثله.. وهو إذا كان لن يستطيع الآن أن يعلو بقبضته رءوس صناديد قريش وظهورهم، فليرفع من شأن العذاب الذى يلقاه ضعاف المسلمين بأن يشاركهم فيه، وليأخذهم الزهو، بأن «عمر» الجسور العملاق المهيب يُضرب مثلما يضربون، ويُضطهد كما يضطهدون!!!

نعم... لن يظلَّ اضطهاد قريش وقفًا على «بلال»، و«خبَّاب»، و«عمار»، و«صهيب»، وإخوانهم من الفقراء والمستضعفين، بل لابد أن يَصْلاه معهم فتى الفتيان هذا، الذى تسبقه هيبته، والذى تنخلع أمام سطوته الأفئدة والقلوب.

لابد أن يُضرب «عمر» كما يضربون، وبهذا لا يصير ضربهم وتعذيبهم ذلة تكسر نفوسهم، وتدغدغ كرامتهم، وبهذا أيضًا يتم «لعمر» إسلامه؛ إذ تتم له المساواة مع المسلمين فى دفع الثمن الذى يشترون به راية الله...!!

هكذا فكَّر «ابن الخطاب».. هكذا فكر صاحب الطبيعة القوية والفطرة السوية.

ولكنْ أنَّى له هذا، وهو المرهوب الجناب إلى الحد الذى يجعل مجرد التفكير فى مُشَانأته مغامرة خاسرة..؟

إذا أراد «عمـــر» أن يكون الظافر المنتصر، فلن يُعييه الســبيل، أمـــا أن يكون المضروب المنهزم، فهذه هى المشـــكلة الكبرى التى يحتاج الظفر بحلها إلى جهد كبير.

فمن الذى يجرؤ أن يضرب «عمر» فى قريش كلها..؟؟

ولكـــنَّ «عمر» قرر أن يرفع من قيمة العذاب الذى يلقاه إخوانه، بأن يتعرض له، ويأخذ نصيبًا منه.

أجل، لقد قرر وأراد، وما دام قد أراد، فلا بد أن يوجد الطريق..

ويرســـم خُطته، ويبدأ جولته بأبى جهل، فيذهب إليه فى داره ويقـــرع الباب ويخرج أبو جهل ليجد أمامـــه «عمر»، فيغلق الباب دونه.

ويمر بأشـــراف قريش فـــى دُورهم متحديًا، رجـــاء أن يخوض أحدهـــم معـــه معركة يخرج منهـــا بلطمة فى صـــدره، أو جرح فى وجهه«!» ولكنهم جميعًا يتحاشَوْنَه ويتحامونه..

وأخيـــرًا يقـــرر أن يلقاهم عنـــد الكعبة وهـــم مجتمعون هناك، ولا يكاد يبلغهم حتى يستثيرهم بالحديث.

ولنصغ إليه يروى بقية ما حدث:

يقول ﷺ:

– «وثـــار إلىَّ الناس يضربوننى وأضربهـــم، فجاء خالى وقال: مـــا هذا؟.. قالوا: ابـــن الخطاب، فقام على الحِجْـــر وقال: ألا إنى

قد أجرتُ ابن أختى، فانكشف الناس عنى، فكنت لا أزال أرى الذين يُضربون من المسلمين، وأنا لا يضربنى أحد، فقلت: ألا يصيبنى ما يصيبهم؟ فجئت خالى، وقلت له: جوارك مردود عليك.. قال: لا تفعل يا رَبن أختى. قلت: بل هو رَدٌ عليك قال: ما شئت فافعل، فما زلتُ أضرب وأُضْرَبُ حتى أعزَّ الله بنا الإسلام»..

* * *

هذا السلوك الباهر الذى يتبدّى من «عمر»، إنما ينبثق من طبيعة استوفَتْ كل عناصر الكمال، والسؤدد. طبيعة لا يَزحَم إخلاصها للمسئولية شيء مَّا، ولا يشغلها عن صقل جوهرها شاغل..

والرجل الذى وقف موقفه هذا أوَّل إسلامه، هو الذى سنلتقى به فيما بعد. أميرًا للمؤمنين، وجيوشه تثلُّ سلطان كسرى وقيصر فيصعد المنبر بعد أن دعا المسلمين للاجتماع، ثم يقول:

– «أيها الناس، لقد رأيُتنى وأنا أرعى غنم خالاتٍ لى من بنى مخزوم نظير قبضة من تمر أو من زبيب»..

ثم ينزل من على المنبر بين دَهَش المجتمعين وتساؤلهم..

ويتقدم منه رجل لم يُطق على ما رأى صبرًا، وهو «عبد الرحمن ابن عوف» ويقول له: ما أردتَ إلى هذا يا أمير المؤمنين؟؟

فيجيبه «عمر»:

– «ويحك يا بن عوف، خلوت بنفسى فقالت لى: أنت أمير المؤمنين، وليس بينك وبين الله أحد، فمن ذا أفضل منك؟.. فأردت أن أعرفها قدرها»..

هذه طبيعة مستقيمة، ليس بداخلها عِوَج، ولا تصبر لحظة على ما يحول بينها وبين رؤية الحق واتباعه.

ولقد جعلت هذه الفطرة القويمة صاحبها رجل صدق عظيمًا، لا يبغى على ما يعمل جزاء أو شُكورًا.. إنما يعبر عن طبيعته الممتلئة التى وضعها فى خدمة الله، ونذَرها لدينه..

وكلما ملأت الرّحب بنشاطها الفذ، وقدرتها الهاطلة..

وكلما أخرجت من خَبْئِها وثَرائها النفسى الذى لا ينفَد..

وَكلما نسجتْ لله راية، وهدَّمتْ للشرك قلعة، وأدَّت لإنسان حقًّا..

كلما فعلتْ هذا، كان عمر سعيدًا جِدَّ سعيد..!!!

□□□